

الهوية العراقية بين صدع الاسم واستحالة الانتماء "رواية الحفيذة الأمريكية لإنعام كجه جي نموذجاً"

Iraqi identity between the fracture of the name and the impossibility of belonging - Al-Hafeeda al-Amreekiya Novel (The American Granddaughter) for InaamKachachi as a model-

ط د- نهاد خلوف^{1*}، د- آسيا جريوي²

¹جامعة بسكرة، (الجزائر)، nihad.khellouf@univ-biskra.dz

²جامعة بسكرة، (الجزائر)، Assia.djerioui@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ المراجعة: 2021/10/15

تاريخ الإبداع: 2021/09/01

ملخص:

يعدّ مصطلح الهوية من المصطلحات التي لم ينته فيها القول إلى اليوم؛ إذ يثير مفهومها الكثير من الأسئلة النقدية، ويحتل مساحة واسعة في التمثيل السردي الروائي. ولو أسقطناه على العراق لألفيناه يمثل نموذجاً حياً؛ حيث تتوافر بلاد ما بين النهرين على ماضي تاريخي على نحو غير عادي. وبالعودة إلى رواية الحفيذة الأمريكية لإنعام كجه جي نجد أن الروائية لم تغيب هذا المفهوم من خلال طرقها للانشاطار الهويي الحاصل على مستوى الذات بدءاً بالاسم، الذي يمثل دوراً بارزاً في تحديد هوية الفرد وصيانتها من التشرذم والابتدال، كما لم تغيب مشكلتي الهجرة واللجوء وأثرهما على الانتماء، أين وجدت الذات العراقية نفسها ضائعة بين مجموعة من الثقافات والحضارات واللغات، الأمر الذي هدد الخصوصية الثقافية والحضارية العراقية ولهذا تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الانشاطار الهوياتي الحاصل على مستوى الذات العراقية والمهدد لوحدها وكيونتها. الكلمات المفتاحية: الانتماء، الاسم، الهوية، اللجوء، الذات، الآخر.

Abstract:

The term identity is one of the terms that is still the subject of discussion to this day. Its concept poses several critical questions and covers a broad area of narrative novelistic representation. If we went back and dropped this on Iraq, we would have a living example of that, where Mesopotamia has an unusually historical past. When returning to Al-Hafeeda al-Amreekiya Novel for InaamKachachi, we find that the novelist did not miss this concept through addressing the identity fraction at the level of the self, starting with the name. The latter plays a prominent role in identifying the identity and maintaining it from fragmentation and vulgarity. InaamKachachidid not

* المؤلف المراسل.

miss as well migration and asylum, and their impact on belonging where she found the Iraqi identity lost among a range of cultures, civilizations, and languages.

This threatened Iraq's cultural and civilizational specificity and, therefore, this study seeks to reveal the identity fraction that occurs at the level of the Iraqi self which threatens its unity and being.

Keywords: name, identity, asylum, self, othe.

1. تقديم:

يُثير مفهوم الهوية الدارسين من جوانب مختلفة؛ حيث تسعى جل الدراسات إلى الكشف عن الهويات المتعددة في الرواية العربية مثل: (الرواية الفلسطينية، الرواية السورية، الرواية الجزائرية ...) ولعل الرواية العراقية هي الأخرى لم تغيب هذا الأمر، فجاءت مشحونة بكثير من الموضوعات المتعلقة بموضوع الهوية. ومنه جاءت إشكالية هذه الدراسة كالآتي: كيف برزت الهوية العراقية في الرواية وهي تتأرجح بين صدع الاسم واستحالة الانتماء؟ وماهي أهم المعوقات التي حالت دون تحقيقها؟ ولذلك ستحاول هذه الدراسة التطرق إلى الهوية العراقية بين صدع الاسم واستحالة الانتماء للخطوط المختلفة التي رسمت معنى التباين والتعدد وصراع الهويات، معتمدة على المزج بين الإجراء الثقافي والوصفي التحليلي؟

2. مدخل:

كثيرة هي التعريفات والنقاشات التي دارت حول مصطلح الهوية ولم ينته فيه القول إلى اليوم، سواء تعلق الأمر بالبيئة الغربية أم في الثقافات الأخرى، بما في ذلك الثقافة العربية، إذ يثير مفهومها الكثير من الأسئلة النقدية، ويحتل مساحة واسعة في التمثيل السردي الروائي ولعل المتأمل للرواية العراقية ولاسيما روايات مرحلة الأزمة وما بعدها، يجد أنّ الكثير من المتخيلات السردية العراقية قد تناولت موضوع الهوية، أو تطرقت لأحد موضوعاتها كالهوية الفرعية، والأقليات العرقية والذات المشطورة، وكذلك مشكلة الانتماء، وقضية اللجوء، والهجرة وغيرها، الأمر الذي صعب إمكانية الحديث عن هوية واحدة وموحدة.

ولو عدنا وأسقطنا هذا الأمر على العراق لألفيناه يمثل "للمجتمعات القديمة والدول الجديدة؛ إذ تتوفر بلاد ما بين النهرين أو الهلال الخصيب على ماضي تاريخي غني على نحو غير عادي"1.

ولعل هذا الغنى والتنوع هو ما جعل من العراق يمتلك خصوصية ثقافية وحضارية جميلة سعى للمحافظة عليها لآلاف السنين، لكن مع الاحتلال الأمريكي للبلد صار هذا التنوع مهدداً بفعل الهجرة أو الذوبان في ثقافة الغالبية مما جعل الوطن مهدداً بأن يفقد جزء من ذاته لا يمكن تعويضه؛ لأنّ خطر الانقراض الذي تتعرض له الأقليات وهجرة اللاعودة هو تهديد للهوية العراقية، وخطر محقق، وتجريد للهوية من مكوناتها.

ولذلك ذهب (ستيوارت هول) إلى القول إنّ: المجتمعات المعاصرة تميزت كثيراً بوجود الهويات الجزئية، والناس لم يعد بوسعهم امتلاك فكرة موحدة عن هويتهم، وإنما يمتلكون العديد من الهويات التي تكون أحياناً متعارضة وملتبسة"2.

ومن ثم صار "الجزء الغاطس أو المغيّب من الخطاب الروائي يمثل نصاً غائباً أو موازياً للنص الظاهر لا يقل أهمية وتأثيراً عن النص المكتوب"3.

وهذا ما جعل الهوية العراقية في شقها الاجتماعي مرتبطة بالتجربة التي يحيها الروائي؛ بل إنّها في كثير من الأحيان تتحول إلى شاهد تاريخي على فترة تاريخية أو ظاهرة اجتماعية ما، الأمر الذي جعل الكثير من

الروايات تسعى إلى أن "تقدم موضوعاتها بجرأة وصراحة، وتصور قضايا مختلطة بطين الأرض، ومخصصة بقضايا الواقع"4.

ولهذا جاءت التمثيلات السردية التي كتبت خلال مرحلة الأزمة وما بعدها مشحونة بكثير من الحمولات الثقافية والتاريخية والحضارية بما في ذلك الرواية، التي طرحت هي الأخرى موضوع الهوية، لأنّ الأحداث التاريخية الكبرى إلا "وتترك بصمات واضحة وظاهرة على كافة الأشكال الأدبية والفنون عامة، إن الحروب والثورات الاجتماعية والصناعية غالبا ما تهز الضمير الإنساني وتغير كثيرا من القيم والأفكار السائدة"5، وبناءً على ذلك كانت أغلب الروايات العراقية في زمن الحرب وما بعده، تتطرق للكوارث والحروب والاحتلال الأجنبي، تطرح كل التفاصيل بتكثيف دلالي عميق، وتعالج قضايا الانشطار الهوياتي والضياع أو الذوبان في الآخر.

وبالعودة إلى رواية الحفيدة الأمريكية لإنعام كجه جي نجدها لم تغيب هذا المفهوم من خلال ارتباطها العميق بالواقع العراقي خلال الاحتلال الأمريكي لبغداد وما بعده، وبالتالي لم يكن من باب الصدفة اختيار هذا النموذج. فقد برزت الهوية العراقية وأضفت بظلالها على النصّ الروائي.

3. الذات المشطورة صدع الاسم واستحالة الانتماء:

لم تغيب أبجديات الانتماء عن وعي الكاتبة العراقية إنعام كجه جي وهي تكتب روايتها الحفيدة الأمريكية؛ حيث جعلت من اسم زينة وهو الشخصية المحورية في الرواية، معبرا للدخول إلى عوالم هذه الشخصية، والتغلغل في فضاء أنها المضطربة، بغية الوقوف على ما تستضمره هذه العوالم من إيحاءات ودلالات، لا تبوح بمعانيها ومقاصدها إلا لمن امتلك مفاتيح الولوج، ليتسنى له بعد ذلك فك شفراتها ومعانيها.

فمنذ السطور الأولى من الرواية يعتري وعي البطلة زينة شعور عميق تصطحبه جملة من الاضطرابات وأولى هذه المفارقات هو ضياعها بين اسمها العربي وجنسياتها الأمريكية "اسمك زينة لكنك أمريكية الجنسية واسمك مهين ولكنك تتكلم الفارسية، تعلمتها عندما كنت أسيرا في إيران"6، ومن هنا كان الاسم أولى العتبات التي انبثق منها سؤال الهوية الموحى بالانشطار والتشظي والضياع "زينة، زوينة، ززن، انخلع قلب جدتها وجلدها يوم سلخوها عنهما، وهي في أرجوحة مراهقتها تعود هكذا"7، فمعرفة الذات لا يكون إلا من خلال الآخر، وكأنا الآخر يمثل بالنسبة لها المرأة التي ترى من خلالها الذات على حقيقتها دون تشويه أو زيف.

ولعل هذا الأمر هو ما جعل (كلورد لفي شتروس) "يذهب إلى أن اسم العلم يتحدد بثلاث وظائف رئيسية وتختص كل وظيفة منه بمهمة أو مهام محددة، وتمثل هذه الوظائف، وتلك الوظائف في التعريف و التصنيف و الدلالة، ويمكن أن تنتج الوظيفة الأولى في إعطاء اسم وحيد من نوعه وتتموضع في ملتقى عدة تعريفات كالتذكير مثلا كيوم الولادة أو بتفاصيل مر بها، أو تختلف (...) حسب ظروف ومراحل الحياة والوظيفة الثانية تصنيف الفرد ضمن جملة محصورة أو واسعة لكون الاسم يدل على الهوية الجماعية ووظيفته الثالثة أي الدلالة مرتبطة بالتعقيدات الرمزية"8، فالتعريف هو رصد لخصائص الاسم وتحقيق لتمييزه من الآخرين، في حين ترتبط الذاكرة بالإيحاءات الرمزية المنبثقة عن الاسم، أما التصنيف فهو وضع الفرد من خلال اسمه ضمن إطاره الثقافي والأنثروبولوجي والسوسولوجي، ذلك أن الاسم ذاكرة جينالوجية يحملها الفرد كعلامة معايرة أو نسق شديد الخصوصية، يحيل مباشرة على الانتماء العرقي والثقافي الحاضن لهوية الفرد وكيونته، وفي ذلك

تقول زينة: "لن تصدق ليذا أنني فقدت مؤلفتي ونفسي تدعوني للانضمام إلى جمعيتها وأنا عاجزة عن الانتماء، وحتى اسمي. ذهبت التي تناديني زينة، زينون، ززنن. هل هناك جمعية الحفيدات اللواتي تكن جداتهن"9. وبالتالي فهي تبحث عن أي شيء يؤكد لها هويتها الضائعة، ولهذا استحضرت جدتها، باعتبارها رمز للعراقة والامتداد؛ فهي الأصل الأول، والشجرة الأم التي منها تولدت كل هذه الفروع. وفي الحوار الذي دار بين حيدر والجدة نكتشف هذه العلاقة التي تربط الجدّة مع حفيدتها "لكنها أمريكية هاجرت من هنا وهي طفلة وصارت أمريكية ... يعني الأمريكي ينسى أصله؟ لا زينة كبرت وتربت في غير دنياها.

سنريها من جديد ... ها عيني حيدر؟

لن نتركها ناقصة التربية"10، لافالجدّة من خلال المقطع السابق تريد أن تؤكد لنا هوية حفيدتها الضائعة، هذا الشيء الذي جعل العلاقة التي تجمع ذات الشخصية زينة مع بلديها العراق/أمريكا علاقة متنافرة يصارع فيها الدال مدلوله من طريق الهوية السحيقة التي تباعد بين القطبين/المكانين: "تذكرت تاريخي الخاص في هذا المكان. السفرات المدرسية وبنات السادس الابتدائي بالصفائر والشرائط البيض وحلقات الرقص على أغنية ما انطيني الدرس"11، وعليه فإنّ الاسمين/المكانين المشكلين لشخصيتها أفقداها هويتها الكاملة؛ لأنّ كل اسم/مكان يحمل خصوصية ثقافية، أما أن تحمل اسمين/مكانين، وطنين أو عدة أوطان/أسماء يعني أنك حامل للعديد من الهويات والانتماءات المخبوءة داخلك، والتي تثقل كاهلك وتقعّدك عاجزا عن تحديد هويتك "عراقيتي تخلت عني، سقطت من جيبي، وتدحرجت بعيدا مثل فلس منقوص حاولت أن أكون الاثنين فلم أصلح"12.

وعليه فالذات العراقية تعاني التيه والضياع فمن جهة هناك وطنها الأم موطن الولادة والنشأة الأولى، بحمولاته الثقافية والدلالية والحضارية الذي يحيل مباشرة على الهوية/الانتماء الجذر والانحدار، ومن جهة أخرى أمريكا مكان التنشئة الاجتماعية.

ومن ثمة فليس من الغريب أن تعلن زينة بين هذا وذاك عن ضياعها، وتطرح سؤال الكينونة من أكون، من أنا؟، مادام الاسم دائما يمثل "رهانا من رهانات الهوية والذاكرة، فالذاكرة والهوية يقيمان فيما بينهما علاقة قوية في كل حالات التسمية"13.

كما أنّ "تغيير الاسم يكون (...). من جهة أخرى محنة واقعية بالنسبة للفرد الذي ترى هويته مهددة موضع شك في أن واحد"14، فما بالك إذا غير المكان، وسلخ الإنسان عن جلده "كما يكفي لإرسال أخي يزن الذي صار اسمه جايزن إلى مصلحة علاج الإدمان، وإدخاله بعد ذلك إلى الجامعة"15.

أن الأمر يتعدى مجرد كونه تغيير للأسماء والألقاب والاستعارات؛ إنّه يصبح صراعا سياسيا وثقافيا، إنه قلق وجودي ومأزق له مساس مباشر بمسألة الهوية والانتماء التاريخي والوطني والحضارة، وصدع الاسم يؤدي لامحالة إلى صدع الهوية، ويُحدث شرخا فيها تحمله من دلالات وإيحاءات "تراني المؤلفة ربيبة الاحتلال وتراني جدتي من نفائس المقاومة"16.

"كيف تكون المشاعر الوطنية خزعبلات، لم تكن تعني لي الكثير لا في طفولتي العراقية ولا في شبابي الأمريكي" 17.

"ورغم حماستي للحرب أكتشف أنني أتألم ألما من نوع غربي يصعب تعريفه هل أنا منافقة أمريكية بوجهين أم عراقية في سبات مؤجل مثل الجواسيس النائمين المزروعين في أرض العدو منذ سنوات؛ لماذا أشعر بالإشفاق وكأنني تأثرت بالأم تيريزا" 18.

ومن خلال المقاطع السابقة نكتشف أن ما تعيشه ذات زينة هو وجه من أوجه الهجنة والتمزق الحاد على مستوى الذات/الكينونة/الهوية هذه الذات التي من المفروض أن تكون وحدة متجانسة ومتكاملة مع ذاتها؛ لكن سيطر عليها شعور الانتماء إلى أي مكان من الأماكن، إنها موجودة وغير موجودة مادامت منقسمة بين ماضي خلفها في مكان سابق، وحاضر لا يمكنها استكمال سيرورته في المكان ذاته، بعد أن عجزت عن العثور على ذاتها في العراق، وتشعر بعدم جدواها في أمريكا، مما أصاب هويتها بالبت والتشويه، وجعلها منتمية وغير منتمية، بيئتين مختلفتين، مزاجين متميزين جذريا، حضاريا، ثقافيا، اجتماعيا وحتى سياسيا، فامتلكها هذا "الشعور المقلق بتعدد الهويات ومعظمها متضارب" 19، وبالتالي هذا التضارب هو الذي ولد الضياع والتشتت، والازدواجية والتشرد.

4 الذات العراقية بين وطن ترفضه ووطن يلفظها:

لم يكن صدع الاسم وهجنة الذات المفارقة الوحيدة في الرواية التي شكلت هوية زينة؛ إذ تكتشف لنا إنعام كجه جي عبر مجريات روايتها، والتي لم تكن أقل إرباكا وإزعاجا عن سابقها، ذلك أن حياتها كانت سلسلة ارتحالات اضطرارية من مكان إلى آخر؛ بل إن عامل الاستقرار والطرده والنفي الأسري لاح في الأفق منذ أن رأت النور، وهي في مهد طفولتها الأولى، ولهذا يذهب إدوارد سعيد إلى أن "أعظم حدث مفرد شهدته العقود الثلاثة الماضية هو تلك الهجرة البشرية التي ارتبطت بالحرب، والكلونيالية وإزالة الكلونيالية، والتطور الاقتصادي والسياسي، وتلك الحوادث المدمرة مثل المجاعة والتطهير العرقي، ومكائد القوى العظمى" 20.

إن هذا إن الربط الإدواري بين الهجرة/النفي/البعد عن الوطن، وبين الحروب/مكائد القوى العظمى هو ما يتطابق مع ما عاشته بطلة الرواية زينة التي وجدت نفسها تدور في حلقة مفرغة ما بين العراق/أمريكا، خاصة وأن المكان يقدم دورا مهما في تحديد الهوية، ويُعدّ عنصرًا منتجًا لها، فالمكان عنصر يحمل الفرد ثقافته وخصوصيته التي تشمل هويته بذلك المكان، ولهذا أشار جيرار جينيت إلى أن المكان "فضاء جغرافي يتولد عن قصة في الحكي من خلال الصور المجازي" 21.

وفي ذلك تقول زينة: "استقرت على رفأ المدفأة في غرفة المعيشة صورتنا التذكارية التي نبدو فيها نحن الأربعة واقفين في حديقة بيتنا وقد اتخذت هيئة رسمية في اليوم الذي أصبحنا فيه أمريكيين" 22. وبالتالي فبين هاجس الانتماء، وإرباقات الولاء، عجزت زينة عن لملمة شظايا هويتها المنشطرة هنا وهناك بين العراق/البلد/الهوية، وبين الملجأ هذين المكانين اللذين ضاع فيها وبينهما إحساسها وانتمائها.

"لذلك تضايقت للمرة الأولى من بزتي العسكرية التي تعزلني من الناس كأنني في خندق وهم في آخر، بل بالفعل في خندق وهم في آخر مثل الممثلين البارعين في التقليد، القدرة على تقمص الشخصيات وعلى أن أكون ابنتهم وعدوتهم في أن وان يكونوا هم في الوقت نفسه أهلي وخصومي"23.

ولهذا كانت حاجة المرء إلى الجذور من "أهم حاجات النفس البشرية وأقلها تبينا واعترافا"24.

فليس من السهل أن يعيش وطنان في شخص واحد، وبتفاصيل وحيثيات مختلفة، وعزبية نظير التي تعيشها بطلة الرواية؛ إذ تحيا غربة مزدوجة، ليتقاذفها شعور البيئونة والتوتر والقلق، وهي التي وجدت نفسها معلقة بين ثقافتين مختلفتين، مما خلق داخلها شعور بالتعدد سواء في العراق أو في أمريكا، فهل قدر لها أن تقضي عمرها باحثة عن اسم ودين ووطن؟ وفي رحلة البحث قد تضيع بدل أن تلتمس الطريق وتعرف ذاتها.

5. اللجوء خطر يهدد الهوية العراقية:

لقد عرفت البشرية منذ أزمنة بعيدة تنقلات وهجرات عديدة يقوم بها مجموعة من الأفراد من مكان إلى آخر لأسباب طوعية منها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو اقتصادي، وقد يحدث أن يكون لجوء لأسباب قسرية كالحروب والصراعات، والاضطهادات والكوارث الطبيعية، ولهذه الهجرة أو اللجوء "عدة مشاكل وانعكاسات اجتماعية، نفسية، إنسانية وحتى اقتصادية من خلال تأثيرها على بنية المجتمعات، أمن واستقرار الدول، وعلى أمن وسلامة الأشخاص، إنما قد يكون لها بالمقابل مزايا وآثار إيجابية على الدول المصدر أو المضيفة لهم"25.

وهذا هو حال الدولة العراقية التي وجدت نفسها بعد 2003 مهددة بالتخلي عن هويتها أو ذاكرتها الثقافية، جراء الهجرة المتوالية واللجوء المستمر الذي يقوم به العراقيون بحثا عن الأمن والأمان، وفي ذلك تقول كجه جي: "بل الهجرة إلى البلد البعيد الذي يكون الرحيل إليه كالذهاب إلى الموت، لالقاء بعده، لكن زينة عادت بعد خمسة عشر عاما، كل العودات مرحب بها إلا هذا الإياب، لأنه يكون حاشا"26.

وهنا تصوير دقيق لحجم المعاناة التي يحياها الفرد العراقي، هذا الأخير الذي يكون البعد عن الوطن بالنسبة له مرادفا للموت؛ لأنّ فيه شتات وبعد عن الأهل والأحباب، وتمرق عن نسيم الأرض، ودفع المنبت "لم أكن أمام الجيران الذين يسكنون الطابق نفسه، سوى واحدة من الطيور العراقية الباحثة عن سماء أمنة. نازحون صار الأردن ملجأهم. أرض يلتقي فيها الأمهات والآباء والأبناء الذين تشبثوا في المهاجر البعيدة"27.

إذن فعنصر الأمن والاستقرار كان الدافع والهاجس الذي أدى بكثير من العراقيين أن يركبوا قطار البعد، ويختاروا حياة الغربة، ويقبلوا أن يضلوا شتاتا متناثرا بين أرجاء المعمورة، مما جعل الهوية العراقية مهددة بأن تفقد خصوصيتها، وتضيع ملامحها الأصلية "بقيت جالسة مع جدتي لساعتين وأزيد نتحدث وتبادل الأخبار عن أقاربنا الكثر الذين توزعوا في البلدان، وكانت تنسأ أسماء الصغار وتخلط أسماء المدن، هل لجأ بيت حكمت إلى السويد أم إلى هولندا، ومن الذي مات ودفنوه في نيوزيلندا جلال أم أخوه كمال"28.

إن ما يحدث في العراق من فرقة وشتات هو ما دمركيان ووحدة البلد، وهدم خصوصيته الثقافية والحضارية وهو الذي شهد "منذ أربعينات القرن الماضي موجات متعاقبة من النزوح والهجرة الأسرية لمواطنيه، إما بين مدنه وقصباته، أو خارج حدوده.

وكانت تقف وراء تلك الموجات من النزوح والهجرة جملة من السياسات المتعصبة والممارسات القمعية، والقرارات المسيئة للأنظمة القضائية على السلطة تجاه أفراد أو جماعات أو فئات الشعب العراقي في مختلف ميادين الحياة العامة²⁹.

وهذا ما عبّرت عنه الروائية في قولها: "كم ألف عراقي، كم مليون تستطيع هذه العجوز أن تربي، إلا زينة هي التي في إمكانها أن تنتشلها من مستنقع الرمال المتحركة الذي يغوص فمين سترتب له أوراق الهجرة، وستتجه إلى سماء أمريكا وهناك سيعيش شبابه الذي ضاع منه"³⁰.

فبين التراث والأصالة، العراق والحداثة تضيق زينة ويضيع معها آلاف العراقيين من بني جلدتها الذين وجدوا أنفسهم بين ثقافتين وبيئتين مختلفتين كلياً، بين أمريكا التي تمثل بالنسبة للكثيرين منهم الفردوس المفقود أين سبيل الخلاص وبين العراق الأم الدائمة التي ولد من نسلها كل هؤلاء، ليتفرقوا بعد ذلك ويعيشوا على بقايا الآخرين "ماعيب الكوبونات ست زينة؟ لقد عاش عليها عشرون مليون عراقي سنه نحن نسميها حصة التموية"³¹. وفي حديث زينة مع مهيمن يتضح لنا هول الكارثة التي حلّت بالعراقيين الذين وجدوا أنفسهم متسولين، بعدما كانوا أصحاب الديار هؤلاء الذين اتخذوا الهجرة وطلب اللجوء سبيلاً، هذان الأمران اللذان لم يقتصر على العراقيين البسطاء بل امتد الأمر ليشمل النخبة "ستجري جدتي العملية في الأردن بلد قريب صار ملجأ لأغلب جراحي العراق. هرب المئات منهم من القتل واستقروا في عمان ودبي والشام وصنعاء"³².

ولعل أطباء العراق وجدوا في طلب اللجوء نفاذاً من الموت، وخلصاً في المعاناة في بلد صار الرصاص

خبزه اليومي.

6. الهوية العراقية بين إثبات الذات وتحدي الانشطار.

1.6 من خلال التاريخ:

من المعلوم أنّ الأمة تتكون من خلال الإرث الجماعي والتاريخي المشترك لأفرادها فهي هوية تاريخية. إن

التاريخ حسب (ابن خلدون) "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض طبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر على بعضهم، وما ينشأ عن ذلك الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيمهم في الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران"³³، وعليه كان التاريخ "يعنى بالنظر في أخبار الدول وما يجمع بينها من علاقات فالتاريخ سجل الأمم نتعرف من خلاله على أحوالها ووقائعها، وأخلاقها، ووقائعها، وأثارها، وعلومها، وتطورها، وهو سجل وجودها، ماضيها وأخبارها ومفاخرها وذكرياتهما، فليس هناك أمة بلا تاريخ"³⁴.

ومن ثمة فامة بلا تاريخ هي أمة بلا ذاكرة، هذه الذاكرة التي حاولت إنعام أن تبقى حية من خلال عملها الروائي؛ لأنّ اللغة هي روح الأمة وحياتها... والتاريخ بمثابة شعور الأمة وذاكرتها وفي هذا الصدد حاولت الروائية أن تتخلص من هاجس اللا انتماء الذي انتابها، وتثبت عراقيتها في خضم الصراع الهوي الذي تعيشه الذات، وهذا الإثبات يكون من خلال العودة إلى التاريخ؛ لأنه وحده الكفيل بالإجابة عن كثير من التساؤلات التي تدور في خلد كجبه جي، التي ما زالت تحتفظ في أسطوانة مخيلتها بالكثير من الأحداث والذكريات الماضية، وفي ذلك تقول:

"يا إلهي كم نتقاطع أنا وذلك التاريخ، وكم نختلف، ولكنه تاريخي من قبل أن أولد، وأنا سليلته وصاحبة الحق فيه، مهما بدت غريبة عنه وناكرة له، فهل تظن تلك الكاتبة الغشيمة أنني سأتخلى لها عن إرثي، حتى ولو كانت وطنية مهلهلة لم تعد تنفع في شيء... عملة جرى تسقيطها زمان" 35.

وفي المقطع السابق نلمح صراعاً هوياتياً تعيشه الذات زينة لدرجة الاغتراب النفسي فنلمحها ضائعة بين الذات والذات النقيضة، زينة والذات المتمردة، أما الذات فتمثلها زينة بما تحمله في جعبتها من عادات وتقاليد ولغة وكلها ترمز لانتمائها الموصلية العراقي العربي، وأما الذات المتمردة فرمزت لها الروائية بالمؤلفة، فالمؤلفة هي صوت الذات المتمردة التي تأتي أن تموت وفي كل مرة تعاود الظهور، وتحدث شرخاً يهدم وحدة الذات.

2.6 من خلال اللغة:

تمثل اللغة الدعامة الأساسية للثقافة؛ فهي الوعاء الحامل لها بمختلف أشكالها وتعبيراتها كما أنّها "معلمٌ أساسيٌّ من معالم الانتماء لمتحدث لغوي واجتماعي بلا شك تُسهّم في تحديد أفق الهوية الواحدة، ونضج ملامحها سواء كانت هذه الهوية فردية أم جماعية، قومية أم وطنية، فاللغة هي التي تشكل ذاتنا، وهي التي تصف الآخر في ذهننا، وهي الوعاء الذي يضم منجزات الأمة وإرثها الحضاري، (...) إنّ لكل أمة لسانها الخاص بها، والذي يمثل رمز وحدتها وهويتها، ويعكس ثقافتها" 36.

وعليه كانت مسألة اللغة ذات صلة وثيقة بالانتماء، ومحدداً مباشراً من محددات الهوية، ولهذا وجدنا زينة في الرواية تتأرجح بين لغتين، فرغم شباهها الأمريكي ما زال أريج الشوق إلى لغتها الأم يراودها عن نفسها، فهي تحتفظ في مخيلتها بكل ما تعلمته من والدها وجدها كان هـرمز صديقي الألقوشي المرفه الذي أعدّه أخلص أصدقائه، شاعراً رقيقاً يقلد نزار قباني. يكتب المسرحيات والقصص بالعربية ويمررها لي لكي أبدي رأيي فيها. كما كانت تصله كتب وروايات كثيرة بالبريد، يشتريها من مكتبة في ديلبورن أو يطلبها من نيل وفرات ويلتزمها مثل فاست فود ثم يمررها لي. كم كنت أحب التمهّل في المطالعة وتذوق وقع الكلمات. أقرأ بصوت عال، مثلما كان يفعل جدي وأنا صغيرة" 37.

وبالتالي فالحنين إلى الأصل الأول كان يحيا بداخل الروائية، ويسكن ذاكرتها؛ وهو ما يعكس حبها للعربية وتعلقها بانتمائها، فهي تحتفظ بأدق التفاصيل عن مهد طفولتها الأولى، وتتفنن في رسم خيوط حياتها في شقها العراقي.

7. الخاتمة:

نخلص إلى القول: توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج يمكن حصر بعضها فيما يلي:

_ يتحقق وعي الذات بهويتها من خلال الآخر، فالأنا والآخر قطبان رئيسيان في تشكل الهوية وهذا ما لم تحققه زينة في الرواية، مما جعلها تعيش حالة من الضياع والبحث الدائم عن الانتماء المفقود.

_ تعدد هوية الفرد يولد داخله صراعات وتناقضات تفصح عن إرباكات الولاء والانتماء، وتشتت تموقعه داخل المنظومات الهوية، مما يسبب أزمات نفسية واضطرابات على مستوى الكينونة (ثنائية الانتماء التي عانت منها زينة/العراقية الأمريكية).

_ يمثل الاسم دوراً بارزاً في تحديد الهوية ففيه يتحقق وعي الذات بهويتها، ويمنع كل محاولة لاستلابها وتهميشها.

_ يعد اللجوء خطراً يهدد الهوية؛ لأنه يسبب ازدواج هوياتها، حيث تختلط من خلاله الهوية الأم مع الهويات الفرعية، فتضيع الحدود وتتضارب الأهداف وتغيب الملامح.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ دافيس إريك، مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق، تر حاتم عبد الهادي، المؤسسة العربية للنشر والدراسات، بيروت، د ت ط 1، ص 39/40.
- ² هارليسوهوليبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حامد حميد محسن، دار كليوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، 2010، د ط، ص 21.
- ³ تامر فاضل: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى، بيروت، 2014، د ط، ص 09.
- ⁴ طه الوادي، الرواية السياسية، دار النشر للجمعيات المصرية، د ت، د ط، ص 09.
- ⁵ شكري عزيز الماضي، انعكاسات هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 1978، د ط، ص 21.
- ⁶ إنعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، دار الجديد، بيروت، لبنان، 2010، ط 3، ص 76.
- ⁷ الرواية، ص 80.
- ⁸ فيليب لابورت، تولوا فارنيه، إثنولوجيا أنثروبولوجيا، تر حسام عبد الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2014/1423 م، ط 1، ص 273.
- ⁹ الرواية، ص 149.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص 76.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص 47.
- ¹² المصدر نفسه، ص 179.
- ¹³ جويل كاندو، الذاكرة والهوية، تر وجية سعد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2009، ص 83.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 85، 84.
- ¹⁵ الرواية، ص 17.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص 36.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 19.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 23.
- ¹⁹ إدوارد سعيد، خارج المكان، تر فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2000، ط 1، ص 28.
- ²⁰ إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، ج 1، تر ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط 1، ص 19.
- ²¹ ينظر: حميد الحميداني، بنية النص السردى من منظور النقض الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991 ط 1، ص 70.
- ²² الرواية، ص 27.
- ²³ المصدر نفسه.
- ²⁴ إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، مرجع سابق، ص 129.
- ²⁵ أعمال المؤتمر الدولي إشكالية الهجرة في الوطن العربي، مركز جيل للبحث العلمي سلسلة كتاب أعمال المؤتمرات طرابلس لبنان عدد 28 يونيو 2020 (التوطئة).
- ²⁶ الرواية، ص 83.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص 75.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 7.
- ²⁹ عبد الوهاب العامر، التنظيم القانوني للمهاجرين والنازحين المرحليين في التشريع العراقي، أعمال المؤتمر الدولي الموسوم بإشكالية الهجرة في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 48.
- ³⁰ الرواية، ص 79.
- ³¹ المصدر نفسه، ص 148.
- ³² المصدر نفسه، ص 126.

- ³³ عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر مقدمة ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد، شارع محمد علي، مصر، د ط، د ت. ص 35.
- ³⁴ صامويل هنتنجتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، تر حسام الدين خضور، دار الرأي للنشر، دمشق، ط 1، ص 125.
- ³⁵ الرواية، ص 38.
- ³⁶ ينظر: عيسى برهومة، آفاق اللسانيات، دراسات مراجعات، شهادات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، د ت.
- ³⁷ الرواية، ص 17.

8. المصادر والمراجع:

1. إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، ج 1، تر نائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط 1.
 2. إدوارد سعيد، خارج المكان، تر فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2000، ط 1.
 3. إنعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، دار الجديد، بيروت، لبنان، 2010، ط 3.
 4. تامر فاضل: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى، بيروت، 2014، د ط.
 5. جويل كاندو، الذاكرة والهوية، تر وجية سعد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2009.
 6. حميد الحميداني، بنية النص السردى من منظور النقض الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991 ط 1، 1991.
 7. دافيس إريك، مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق، تر: حاتم عبد الهادي، المؤسسة العربية للنشر والدراسات، بيروت، د ت ط 1.
 8. شكري عزيز الماضي، انعكاسات هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 1978، د ط.
 9. صامويل هنتنجتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، تر حسام الدين خضور، دار الرأي للنشر، دمشق، ط 1.
 10. طه الوادي، الرواية السياسية، دار النشر للجمعيات المصرية، د ت، د ط.
 11. عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر مقدمة ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد، شارع محمد علي، مصر، د ط، د ت.
 12. عبد الوهاب العامر، التنظيم القانوني للمهاجرين والنازحين المحليين في التشريع العراقي، أعمال المؤتمر الدولي الموسوم بإشكالية الهجرة في الوطن
 13. عيسى برهومة، آفاق اللسانيات، دراسات مراجعات، شهادات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، د ت.
 14. فيليب لابورت، تولوا فارنيه، إثنولوجيا أنثروبولوجيا، تر حسام عبد الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2014/1423 م، ط 1.
 15. هارليسوهوليبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حامد حميد محسن، دار كليوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، 2010، د ط.
- الملتقيات:
16. أعمال المؤتمر الدولي إشكالية الهجرة في الوطن العربي، مركز جيل للبحث العلمي سلسلة كتاب أعمال المؤتمرات طرابلس لبنان عدد 28 يونيو 2020 (التوطئة).